مسك الختام

بشرى يوسف
bushragsj@yahoo.com

عراقيون على ابواب المنافي

قالت امرأة وهي تقف في الطابور الكبير أمام المفوضية السامية لشؤون اللاجئين في سوريا بعد ان احرقتها شمس الظهيرة واعيتها ساعات الانتظار الطويلة وقد تحجرت الدموع في مقلتيها، وغاب صوتها بعبرة مرة "هذا حال العراقيين لاجئين على ابواب الدول يبحثون عن وطن يأويهم بعد ان ضاع العراق وضيع أهله".

هذه الكلمات المؤثرة تختزل ألماً كبيراً كامنا في أعماق أكثر اللاجئين العراقيين الذين يصل عددهم أربعة ملايين في مختلف دول العالم، منهم نحو مليون ونصف عراقي في سوريا مسجلين في المفوضية السامية لشؤون اللاجئين. فضلا عن أعداد كبيرة من اللاجئين في الداخل العراقي.

حين تنظر اليهم تتذكر ليل بغداد البهيم ونهاره الدامي الثاوية فيه أحلام محتضرة لكائن يدعى العراق يتسكع حافي القدمين بثياب رثة أمام سفارات العالم يطلب اللجوء الإنساني.

اما سفارات العالم جميعا فقد احتاطت للامر وكتبت على ابواب سفاراتها بالخط العريض "لايسمح للعراقيين بالدخول".. وكأن العراقي قد انتهت مدة صلاحيته ولم يعد مسموحا تصديره او تداوله في اية بقعة من بقاع العالم.

ذلك ان خريطة العراق المضرجة بالدماء والممزوجة بالآهات ليست كخرائط بقية البلدان الأخرى في أرجاء المعمورة. انها خريطة حولت اكثر العراقيين الى لاجئين يتسمون بسمة الفقر والمرض، مصابون بحالة من الإحباط، والرعب من الاتي ومن المستقبل المجهول، فلا قرارات اتفاقية جنيف وملحقاتها تنطبق عليهم، ولا بنود الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تشملهم. والأسوأ من كل ذلك المعاملة السيئة التي يلقاها العراقي في مطارات العالم، او حدود الدول البرية.. ان حل فيها ضيفا او موفدا او طالب علم.

واذا كانت مطارات العالم المتحضر التي تنادي بحقوق الانسان وتمنع التمييز العنصري.. قد وضعت لطائرات الشرق الاوسط والدول غير المتحضرة، مدارج نزول وقاعات انتظار "درجة

ثانية"، فان مطارات الدول العربية قد استهوتها الفكرة وجعلت للعراقيين الوافدين اليها او المغادرين منها قاعات خاصة "درجة ثانية"، ليعزل فيها العراقيون قبل ان يسمح لهم بالدخول.. هذا ان سمح لهم!!.. وكان العراق قد انتقل فجأة إلى مكان مجهول، أو ابتلعه بحر، ورحل، ولم يعد احد يعرفه، الا بعد ان يجرى تحقيق طويل عريض مع العراقي الاتي من المجهول، وسواء كان هذا العراقي عالما او استاذا او طبيبا او اعلاميا فهو معرض للاذلال والمهانة والانتظار لساعات طويلة في النقاط الحدودية لاية دولة عربية، قبل ان تتكرم تلك الدولة وتسمح له بدخول اراضيها!.

ونحن بعد هذا نتساءل وقد اعيانا التفكير: من في العراق يفكر في تداعيات هذا الوضع المؤلم الذي حول العقول العراقية من علماء وادباء ومهندسين واساتذة جامعات الى لاجئين معطلين عن العمل والتواصل العلمي والفكري؟ ومن برأيكم يساعد العراق وينقذه لتجاوز المحنة الراهنة في ظل هذا النزوح ومخاطره على مستقبل البلد العلمي؟ واي مستقبل ونحن نرى ان بعض الطروحات التى تتبنى نهجا قائما على استقرار بضعة الاف من اللاجئين فى هذه الدولة أو تلك من دول الجوار.. قاصرة عن ايجاد حل حقيقى لمشكلة اللاجئين والنازحين العراقيين، فضلا عن افتقارها الى الواقعية والنظرة العملية اللازمة، لتحسين أوضاع العراقيين، والتخفيف من معاناتهم، فهل يمكن لبضعة مساعدات عينية تقدمها بعض منظمات الامم المتحدة قادرة على حل ازمة العراقيين؟.. وهل بالطعام وحده يعيش الانسان؟ الاتوجد احتياجات اخرى اهمها العمل والتعليم؟. انظر حولك لترى.. الاف الشبان والشابات قد تركوا تعليمهم، او ركنوا شهاداتهم وعلمهم.. ليتسكعوا دون أمل بالمستقبل، في الدول التي لجأوا اليها طلبا للامان، بعد ان طال الموت المنبعث مع نسيمات الصباح، وبقايا الخراب وأطلال الحياة جسد وطنهم المطعون الغارق في جراحاته اليومية، وفيهم قال البياتي ومازال يردد "ماذا جنيتْ عصافيرك يا بغداد فتصبح بلا منازل، ترهق أجنحتها الغصة معاول الغربة، وقد سلب منها الوطن"؟.